

## الفصل الرابع التفسير العلمى للقرآن الكريم

أولاً: المراحل المختلفة لتفسير القرآن الكريم:

(أ) المرحلة الأولى: التفسير المأثور عن النبي ﷺ

وهذا التفسير شمل كل ما جاء بالقرآن الكريم من عبارات ومعاملات ومعتقدات، وذلك من خلال الأحاديث النبوية المتواترة بالسند الصحيح، ولذلك كانت السنة النبوية خير مفسر لهذه الأمور الدينية.

(ب) المرحلة الثانية: التفسير المأثور عن الصحابة وتابعيهم:

ولقد اهتم هؤلاء بالأمور الفقهية ولم ينشغلوا بالحقائق الكونية وأسرارها ونواميسها، ولم يفكروا فيها نظراً لضحالة المستوى العلمى فى ذلك الوقت وكانت أدواتهم فى منهج تفسير القرآن هى:

● تفسير القرآن الكريم بالقرآن.

● التفسير بالسنة النبوية الشريفة.

● التفسير اللغوى والبلاغى.

● التفسير الاجتهادى.

وكان من أعلام هؤلاء عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعلى بن أبى طالب والسيدة عائشة أم المؤمنين وغيرهم من الخلفاء والصحابة والتابعين. إلا أن هناك أوجها للضعف فى هذه المرحلة أوجزها الشيخ الصابونى، منها نقل كثير من الأقوال المنسوبة إليهم من غير إسناد مما أدى إلى التباس الحق بالباطل ووجود بعض الخرافات والإسرائيليات التى تصطدم بالعقيدة الإسلامية التى قام الدليل على بطلانها.

(ج) المرحلة الثالثة: التفسير بمقتضى اللغة

ويتوقف هذا النوع على أمور لا بد منها؛ كبيان مدلولات الألفاظ والنحو لتفسير الإعراب والصرف وعلوم البلاغة مثل المعانى والبيان والبديع. وترجع أهمية هذا التفسير إلى فهم اللغة العربية كأساس لفهم القرآن.

## ( د ) المرحلة الرابعة: التفسير بالرأى

وفى هذه المرحلة انتقل العلماء من التفسير النقلى إلى التفسير العقلى فى الأمور التى تحتاج لتقافات جديدة لتمحيص المعانى واستنباط الآراء، وبدأ بذلك باب جديد للتفكر والتدبر والتأمل فى آيات الله على يد رواد أوائل مثل الإمام الطبرى والزمخشرى والرازى وغيرهم من أجيال العلماء الملتزمين بقواعد اللغة الذين فتحوا باب الاجتهاد لأئمة المذاهب الأربعة لاستنباط الأحكام، ولقد أجاز هذا التفسير بالرأى الإمام الغزالى مادام الرأى لا يخالف القرآن ولا يعارض السنة النبوية، وأما من فسر القرآن بدون علم أو فسه حسب الهوى مع الجهل بقوانين اللغة أو الشريعة أو حمل كلام الله على مذهبه الفاسد وبدعته الضالة، أو خاض فى الغيبيات فهذا سلوك مذموم وتفسير باطل وينطبق عليه قول الرسول الكريم. «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار».

ويرى الإمام الغزالى فى كتابه (إحياء علوم الدين) أن هذا الحديث ليس نهياً عن التفسير بالرأى والاختصار على النقل دون العقل وترك الاستنباط والاجتهاد مما يتعارض مع دعاء الرسول لابن عباس بقوله ﷺ «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل».

وقوله سبحانه: ﴿لَعَلِمَةُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣)

مشيراً إلى أن لأهل العلم استنباطاً ورأياً، وبذلك يرى الإمام الغزالى النهى عن الرأى الفاسد الموافق للهوى دون اجتهاد صحيح، أو الرأى المتسرع بظاهر العربية من غير استظهار بالسمع فيما يتعلق بغرائب القرآن من اختصار وحذف وإضمار وتقديم وتأخير ومجاز، ويؤكد الغزالى بأن أسرار القرآن تتكشف للراسخين فى العلم بقدر غزارة علومهم، وصفاء قلوبهم، وتوافر دواعيهم للتدبر، وتجردهم للطلب وزهدهم عن اللهو ورغبتهم للحياة فى نور القرآن، ومن أمثلة التفسير بالرأى المحمود من أهل السنة تفسير مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازى وهو تفسير موضوعى لغوى وفقهى مع الاستعانة بما عرفه من علوم فى زمانه.

ويقول الدكتور عبد المنعم النمر رحمه الله إن التفاسير كلها بالثبور أو بالرأى أو بكليهما معا تدور كلها حول أبحاث لفظية نحوية أو بلاغية وحول روايات أغلبيتها الكبرى خرافات وإسرائيليات وأحاديث لا أصل لها. وجاء تفسير الفخر الرازى فغلبت عليه العلوم العقلية والفلسفية والفلكية، ثم تفسير الألوسى المتوفى عام ١٢٧٠ هـ جامعاً لما رأى جمعه وإثباته من التفاسير السابقة حتى ظهر الشيخ محمد عبده بنضجه العقلى وانتقد التفاسير وبدأ منهجه فى الإصلاح متأثراً بمنهج أستاذه جمال الدين الأفغانى، وتعهد السيد رشيد رضا مدرسة الإمام محمد عبده فى أوائل هذا القرن الميلادى (١٩٠٠م - ١٣١٨ هـ) حتى اتسع ظلها وغيرت

مجرى التفكير الدينى فى مصر والعالم الإسلامى وظهرت تفاسير جديدة للشيخ طنطاوى جوهرى وسيد قطب، والمنتخب من مجمع البحوث الإسلامية، وخواطر الشيخ الشعراوى علاوة على اجتهادات كثيرة فى مجال الإعجاز العلمى للقرآن تم نشرها فى النصف الثانى من القرن العشرين وللمؤلف مجهود فى هذا المجال<sup>(١)</sup>.

### ثانياً: التفسير الحديث للإشارات العلمية القرآنية فى عصر العلم والتكنولوجيا:

فى العصر الحديث عصر العلم والتكنولوجيا الذى تراكمت فيه المعارف الكونية وتقدمت العلوم الطبيعية وتشعبت إلى فروع وتخصصات دقيقة، قام الكثير من علماء المسلمين الكونيين بالإدلاء بخبراتهم وتأملاتهم فى آيات القرآن الكريم يوضحون ما فى إشاراتها العلمية من حقائق ومعان خاصة بالكون وسنة الله تعالى فيه مما يتفق تماماً مع المكتشفات العلمية الحديثة، وبدأت تنتشر مصطلحات حديثة مثل «لتفسير العلمى» «الإعجاز العلمى» وهى تفيد تأويل الآيات القرآنية التى وردت بها إشارات علمية بما يتفق مع الحقائق والاكتشافات الحديثة فى العلوم الكونية.

وبدأ استقلال باب من التفسير عرف بالتفسير العلمى يجتهد فيه المفسر لاستخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية من القرآن الكريم. وأفرط البعض فى هذا الباب أو النوع من التفاسير واقتصد البعض الآخر. ورأى البعض أن القاعدة الأصلية الراسخة هى «ألا يكون فى القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية ثابتة إلا إذا أخطأ الناس فى فهم الآية القرآنية أو جهلوا الحقيقة العلمية لأنه لا تعارض بين القرآن والعلم مطلقاً».

ولقد انقسم المفسرون فى العصر الحديث إلى فريقين:

فريق يمنع التفسير العلمى للقرآن الكريم ويراه غير صحيح فى منهجه وضاراً بالدعوة الإسلامية وينحرف بالقرآن عن غايته ويندفع به إلى مجالات لا يحمد عقباها.

وفريق آخر يجيز التفسير العلمى للقرآن ويجده فتحاً جديداً يساهم فى خدمة تفسير القرآن لأهل العصر الحديث، ودليلاً جديداً من أدلة إعجاز القرآن الكريم يخدم نشر الدعوة الإسلامية.

والحدود ليست فاصلة بين الفريقين، وكلاهما يخشى الضلال والانحراف والتفريط عن سواء السبيل، ومن عظمة القرآن وروعته أن كل فريق يجد فيه ما يؤيد رأيه. ولما كانت حقائق الله وسنته فى الكون واحدة. فإن هذا يعنى أن خير الأمور الوسط وأن إبعاد المغالاة والتفريط

(١) راجع كتب المؤلف فى دار المعارف فى مجال إعجاز القرآن.

والاندفاع في كل رأى لابد أن يؤدي إلى تقارب آراء الفريقين للوصول إلى الحقيقة. ويوجز الأستاذ المستشار/ مدحت حافظ إبراهيم<sup>(١)</sup> آراء الفريقين بعد تمحيص علمي كما يلي:

### آراء المانعين للتفسير العلمي للقرآن

يكتفى المانعون للتفسير العلمي للقرآن الكريم بالمعنى الظاهر للإشارات العلمية القرآنية ويمنعون الدخول فيما تشير إليه هذه الإشارات من حقائق علمية. ويرون أن الدخول في عرض الأفكار والنظريات والفروض والقوانين والقواعد العلمية يصرف عن الغاية الرئيسية للقرآن كبشير ونذير، ويشغل عن سبيله كهداية وصلاح للإنسان، ويرون أن في هذا صدا عما أنزل القرآن لأجله. فمثلا، الفخر الرازي فيما أورده في تفسيره من العلوم الطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت غالبية في عهده كالهيئة الفلكية وغيرها. وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآيات فصولا طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسما والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن.

ومن المعترضين على التفسير العلمي في الماضي أبو إسحاق الشاطبي المتوفى سنة ٧٩٠ هجرية، فهو يرى «أن كثيرا من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من أهل الفنون وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح، وإضافة إلى هذا فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبكلامه وما أودع فيه ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى سوى ما تقدم، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة وما إلى ذلك، ولو كان لهم في ذلك خوض ونظرة لبغنا ما يدلنا على أصل المسألة، إلا أن ذلك لم يكن فدل على أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا، ويرد على الاستدلال بإجازة التفسير العلمي بالآيتين الكريمتين.

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (النحل: ٨٩)

﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ٣٨)

(١) مرجع سابق.

إن المراد هو حال التكليف والتعبيد واللوح المحفوظ وليس جميع العلوم الكونية «النقلية والعقلية».. فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن مالا يقتضيه، كما أنه لا يصلح أن ينكر فيه ما يقتضيه، ويجب الاقتصار في الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة بما يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه، وتقول على الله ورسوله فيه والله أعلم وبه التوفيق<sup>(١)</sup>.

ويمكن تلخيص حجج المعارضين للتفسير العلمى فى الوقت الحاضر فى ثلاث حجج هى:

### ١- الناحية اللغوية:

فكثير من الألفاظ القرآنية تغيرت وتوسعت دلالتها بمرور الزمان، وهذه المعانى كلها تقوم بلفظ واحد بعضها عرفته العرب وقت نزول القرآن وبعضها لا علم للعرب به وقت نزول القرآن، نظراً لحدوثه وطروئه على اللفظ، فهل يعقل أن نتوسع هذا التوسع العجيب فى فهم ألفاظ القرآن وجعلها تدل على معانٍ جدت باصطلاح حادث؟

### ٢- الناحية البلاغية:

البلاغة هى المطابقة لمقتضى الحال والتفسير العلمى للقرآن يضر ببلاغة القرآن لأن من خوطبوا بالقرآن فى وقت نزوله إن كانوا يجهلون هذه المعانى، وكان الله يريد بها من خطابهم إياهم لزم على ذلك أن يكون القرآن غير بليغ لأنه لم يراع حال المخاطب؟ وإن كانوا يعرفون هذه المعانى فلم لم تظهر نهضة العرب العلمية من ليلة نزول القرآن الذى حوى علوم الأولين والآخرين؟

### ٣- الناحية الاعتقادية:

أنزل الله القرآن إلى الناس كافة حتى قيام الساعة، ولو ذهبنا مذهب من يحمل القرآن كل شىء وجعلناه مصدرًا للعلوم لكننا بذلك قد أوقعنا الشك فى عقائد المسلمين نحو القرآن الكريم، وذلك لأن قواعد العلوم وما تقوم عليه من نظريات لا قرار لها ولا بقاء، ولو نحن ذهبنا إلى تقصيد القرآن ما لم يقصد من نظريات ثم ظهر بطلان هذه النظريات فسوف يتزلزل اعتقاد المسلمين فى القرآن الكريم لأنه لا يجوز للقرآن أن يكذب اليوم ما صححه بالأمس.

ومن المترددين فى الاستخدام التفسير العلمى للقرآن الكريم فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى، ومع ذلك فإننا نجد بعد أن نتقدم معه فى استعراض حججه وأدلته يدعو بل

(١) أبو إسحاق الشاطبى - الموافقات - جزء ٢ ص ٥٥ وما بعدها ص ٧٩٧ وما بعدها.

ويعرض في منتهى البراعة والإتقان بالحجج والأدلة من الحقائق العلمية ما يوضح الكثير من الآيات القرآنية العلمية. وهذا كله يؤكد أن من يعارض التفسير العلمى يعارض فى الحقيقة المغالاة والاندفاع فى النظريات والفروض والظنون العلمية وليس الحقائق العلمية. يقول فضيلة الشيخ الشعراوى: «إن هذا أخطر ما نواجهه. ذلك أن بعض العلماء فى اندفاعهم فى التفسير وفى محاولتهم ربط القرآن بالتقدم العلمى يندفعون فى محاولة ربط كلام الله بنظريات علمية مكتشفه يثبت بعد ذلك أنها غير صحيحة. وهم فى اندفاعهم هذا يتخذون خطوات متسريعة ويحاولون إثبات القرآن الكريم بالعلم.. والقرآن ليس فى حاجة إلى العلم ليثبت.. فالقرآن ليس كتاب علم.. ولكنه كتاب عبادة.. ومنهج.. ولكن الله سبحانه وتعالى فى علمه علم أنه بعد قرون من نزول هذا الكتاب الكريم سيأتى عدد من الناس ويقول انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم.. ولذلك وضع فى قرآنه ما يعجز هؤلاء الناس، ويثبت أن عصر العلم الذى يتحدثون عنه قد بينه القرآن الكريم فى صورة حقائق الكون منذ أربعة عشر قرناً.. ولم يكتشف العقل البشرى معناها إلا فى السنوات الماضية<sup>(١)</sup>. وعلى هذا فرأى مولانا الشيخ الشعراوى متزناً فى تقديرى.

ولقد سبق أن قلت إن عطاء القرآن الكريم متجدد؛ مصداقاً للآية الكريمة:

﴿ سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ ﴾

(فصلت: ٥٣)

ويجب أن نتنبه إلى حرف السين فى كلمة سنريهم لأن معناها المستقبل. والمستقبل هنا لا ينتهى.. بل إن عطاءه مستمر لهذا الجيل والجيل الذى بعده.. إلى يوم القيامة. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى قد أعلمنا أن هناك حقائق وآيات سيكشف عنها لكل جيل. ولكن ليس معنى هذا أن نحمل معانى القرآن أكثر مما تحتمل.. وأن نتعامل معه على أساس أنه كتاب جاء ينبئنا بعلوم الدنيا.. فالقرآن لم يأت ليعطينا أسرار علم الهندسة.. أو علم الفلك.. أو علم الفضا.. إلى آخر هذا، ولكنه يبدأ من أول سورة بعد الفاتحة وهى سورة البقرة بالآية الكريمة.

﴿ أَلَمْ ۙ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۙ ﴾ (البقرة) أى إنه كتاب

هدى.

(١) الشيخ محمد متولى الشعراوى - معجزة القرآن ١٩٨١ ص ٨٩.

ولكن الله سبحانه وتعالى وضع في كتابه الكريم ما يمكن أن نرد به على الذين يحاربون هذا الدين حتى يوم القيامة.. ومن هنا فإن آيات الكون الكبرى التى أنبأنا الله بها فى القرآن الكريم.. والتى نعرف بعضها - وبعضها لا نعرفه معرفة اليقين حتى الآن - أرادنا الله سبحانه وتعالى أن نفحم بها أولئك الذين يقولون: انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم.. وأن يقول لنا: إن العلم الذى يحاول بعض المضلين أن يتخذوه إلهاً جديداً هو من علمى ومن خلقى.. فلا تعبدوا المخلوق وتتركوا الخالق، ولكن هذا لا يجعلنا نأخذ العلم دليلاً على صحة القرآن، بل على العكس فإن القرآن هو الدليل على صحة أو عدم صحة العلم، فالعلم الذى يتناقض مع القرآن الكريم كاذب وغير صحيح.

والقرآن هو كلام الله المتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة لا تغيير ولا تبديل.. ومن هنا فإن خطورة ربط القرآن الكريم بنظريات علمية كاذبة.. وما أكثرها. تجعل موقف المفسر فى حرج عندما يثبت كذب هذه النظرية.. فهو لا يستطيع أن يغير أو يبدل فى كلام الله، ومن هنا يجب أن نتروى وأن ندرس بإمعان ونتنظر حتى تثبت الحقيقة العلمية ثبوت اليقين قبل أن نتحدث عن ربطها بالقرآن الكريم، ولا نأخذ حديثاً براقاً يكون مجرد فرض.. وليس نظرية علمية، ونسرع ونربطه بكلام الله.. وحينئذ نكون قد ارتكبنا خطأ كبيراً فى حق القرآن عندما يثبت كذب هذا الافتراض العلمى؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد فصل القرآن الكريم على علم إلهى يقينى علاوة على هدف التنزيل من الهدى والرحمة كما فى قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ (الأعراف: ٥٢)

ويمكن إجمال حجج المانعين من التفسير العلمى كما يدعى البعض فيما يأتى:

أولاً: أن القرآن كتاب هداية؛ وأن الله لم ينزله ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف.

ثانياً: أن التفسير العلمى للقرآن يعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم فى كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأى الأخير.

ثالثاً: أن التفسير العلمى للقرآن يحمل أصحابه والمغرمين به على التأويل المتكلف الذى يتنافى مع الإعجاز ولا يسيغه الذوق السليم.

رابعاً: أن هناك دليلاً واضحاً من القرآن على أن القرآن ليس كتاباً يريد الله به شرح حقائق الكون، وهذا الدليل هو ما روى عن معاذ أنه قال: «يا رسول الله إن اليهود تسألنا ويكثرون

مسألتنا عن الأهلة. فما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يستوى ويستدير ثم ينقص حيث يعود كما كان» فأنزل الله هذه الآية:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ (البقرة: ١٨٩)

وهذه الحجج غير كافية لرفض التفسير العلمى للقرآن.

فاولا: إن كون القرآن كتاب هداية فهو أيضا مفصل على علم: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ

فَصَّلَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ (الأعراف: ٥٢) ولقد فصل القرآن الرد عن الأهلة

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ (البقرة) بآيات أخرى علمية تدل على أن الأهلة تنشأ من حركة القمر

فى منازل ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِيَتَعَلَّمُوا

عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(يونس: ٥) وبأن الأهلة - كما تشير هذه الآية ناشئة من فلك القمر الذى يسبح فيه حول الأرض

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ مَبِيقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(يس: ٤٠) ولا يمنع أن ترد فى القرآن الكريم إشارات علمية يوضحها التعمق فى العلم

الحديث، فقد تحدث القرآن عن السماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار وسائر الظواهر

الكونية الهامة كالحد الأقصى للسرعة وبداية الكون ونهايته وعمر الكون، كما تحدث عن

الإنسان والحيوان والنبات. ولم يكن هذا الحديث المستفيض منافيا لكون القرآن كتاب هداية،

بل كان حديثه هذا إحدى الطرق التى سلكها لهداية الناس.

ثانيا: أما تعليق الحقائق التى يذكرها القرآن بالفروض العلمية فهو أمر مرفوض. وأول من

رفضه هم المتحمسون للتفسير العلمى ومنهم مؤلف هذا الكتاب لأننى لا أربط القرآن

إلا بالحقائق، بل لقد استخدمت نص آية السجدة ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ،

ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ (السجدة)

فى إثبات صحة أهم نظرية علمية فى القرن العشرين والتى تسمى النسبية الخاصة لأينشتين.

ثالثاً: أما القول بأن هذا اللون من التفسير يتضمن التأويل المستمر والتحمل والتكلف فإن التأويل بلا داع مرفوض. وقد اشترط القائلون بالتفسير العلمي للقرآن شروطاً من بينها ألا يعدل المفسر عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن التي تبرر ذلك.

رابعاً: أما الاستدلال بما ورد في سبب نزول الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾ (البقرة: ١٨٩) فهو بحاجة إلى أن يثبت، وإلا فهو معارض بما رواه الطبري في تفسيره عن قتادة في هذه الآية. قالوا: سألوا النبي ﷺ لم جعلت هذه الأهلّة؟ فأنزل الله فيها ما تسمعون، هي مواقيت للناس والحج، فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم ولناسكهم وحجهم ولهدى نسكهم ومحل دينهم في أشياء، والله أعلم بما يصلح خلقه. وروى عن الربيع وابن جريج مثل ذلك، ففي هذه الروايات التي ساقها الطبري أن السؤال هو: لم جعلت هذه الأهلّة؟ وليس السؤال ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يستوى ويستدير ثم ينقص. ولذلك فإنه لا دليل في الآية على إبعاد التفسير العلمي<sup>(١)</sup> بل إن القرآن أجاب عن سؤال الأهلّة في آيات أخرى.

والحقيقة التي يعرف رجال العلوم الكونية معناها وحدودها صادقة ولا تبطل ولكن قد تزداد مع الزمن وجهود العلماء المتابعة تفصيلاً ووضوحاً.. وذلك بسبب طبيعة العلم المرنة والنامية الناجمة عن فضول العلماء الذي لا يحد، ودأبهم الذي لا ينقطع في السعي وراء المعرفة، وعن تراكم نتائج بحوثهم واتفاق إحاطتهم بتلك النتائج. وعلى الأخص في هذا العصر. وعن تقدم البحوث التي تفتح على الدوام آفاقاً للعلماء لم يكونوا من قبل بالغيا، ثم عن التفاعل بين حصائل أفرع العلوم المختلفة، وتورع العلماء الصادقين عن خطيئة التعصب والجمود. والنمو المطرد والمرونة الدائمة للعلوم هما سر حيويتها وتقدمها. وليس من الصواب اعتبارها دليلاً على قصورها وبطلانها. إن العلوم غير مقدسة، والعلماء غير معصومين من الخطأ، ولكن العلوم ليست وهماً أو خيالاً أو بنياناً ركيكاً. إذن فما هو سر القول بأن العلوم الطبيعية ليست أهلاً لأن تنضم في تواضع غير متكلف إلى العلوم الخادمة لتفسير القرآن الكريم؟. أعتقد أن الاعتراض ناشئ عن مصدرين أولهما عدم فهم طبيعة العلوم واتخاذ أعظم مزاياها منقصة فيها. وثانيهما هو خطأ التطبيق.. وحرى بأهل العلم ألا يسهموا في خدمة تفسير القرآن إلا بما تطمئن إليه عقولهم ونفوسهم ويتفق مع الفهم الصحيح للقرآن الكريم ولعلومهم<sup>(٢)</sup>.

ولهذا كانت الأغلبية في العصر الحديث هي في اتجاهٍ وسط يرى أن القرآن الكريم كتاب هداية بالدرجة الأولى، ولكنه مع ذلك حوى عدداً من الأدلة العلمية والمعجزات الكونية. وقد

(١) الشيخ محمد الأمين ولد الشيخ: بحث التفسير العلمي للقرآن بين المجيزين والمنايعين المؤتمر العلمي الأول للإعجاز العلمي للقرآن والسنة سنة ١٩٨٧. ص ٦٩ وما بعدها، إسلام آباد بباكستان.

(٢) أ. د. عبد الحافظ حلمي: مجلة عالم الفكر مجلد ١٢ عدد ٤ عام ١٩٨٢ ص ٧٦.

أمرنا الله أن نخاطب الناس بلسانهم وباللغة التي يفهمونها، ومن هذا البيان شرح هذه الآيات وبيان ما تشير إليه أو ما اشتملت عليه من إعجاز علمي أو كوني. يقول الإمام محمد مصطفى المراغي: «يجب ألا نجر الآية إلى العلوم كي نفسرها ولا العلوم إلى الآية، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها». ويقول في مكان آخر: «لست أريد أن أقول إن الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلا وبالأسلوب التعليمي المعروف، وإنما أريد أن أقول إنه أتى بأصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته ليبلغ درجة الكمال جسدا وروحا. وترك الباب مفتوحا لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ليبينوا للناس جزئياتها».

وبهذا المسلك المعتدل استطاع الشيخ المراغي أن يوفق بين القرآن والعلم في تفسيره لبعض سور القرآن الكريم تفسيرا دينيا توجيهيا يحمل أصول التوجيه والإصلاح لنظم الحياة وإدارتها، فكان يخاطب بتفسيره الملوك والحكام، ويدعوهم إلى العدل والشورى والمساواة، ويحثهم على مكارم الأخلاق والعمل النافع المفيد، ومن هذه المدرسة عدد من العلماء في العصر الحديث، منهم الشيخ محمود شلتوت والدكتور محمد عبد الله دراز، والشيخ محمد المدني والدكتور محمد البهي والشهيد حسن البنا والشهيد سيد قطب وغيرهم في أنحاء العالم الإسلامي، يحملون رسالة القرآن ودعوته إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو لون من ألوان حفظ الله لكتابه. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر)

وعلى هذا فإن أهم ما يجب أن يتميز به التفسير في العصر الحديث أن يجمع بين الدعامتين اللتين يقوم عليهما الإسلام، الدعامة الأولى: هي العقل والعلم، والدعامة الثانية الهدى والرشد، وهما الدعامتان اللتان أوضحتهما القرآن في آياته الدينية وآياته الكونية. ومن المعروف أن الأديان السماوية غير الإسلام تكتفي بالدعامة الثانية وهي الهدى والرشد بينما تكتفي الدول المتقدمة اقتصاديا وعسكريا ورواد الحضارة الحديثة بالدعامة الأولى وهي العقل والعلم. ولهذا يقوم الصراع بينهما؛ ولهذا فأمام المسلمين فرصة تاريخية في الوقت الحاضر لإظهار القرآن الكريم الوحي الإلهي المنزل والدستور الملزم لجميع البشر، وذلك بكماله وإعجازه وربطه الحكيم بين الدعامتين.. ودور المفسرين هو توضيح ذلك.

يقول الله تعالى:

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران)

فالله سبحانه وتعالى قد منَّ علينا في آيات كثيرة من القرآن بأنه سخر الليل والنهار والشمس والقمر وسخر لنا الأرض والسماء وما بين الأرض والسماء، والامتنان الإلهي بهذا معناه دعوة صريحة للمسلمين أن يستجيبوا إلى التوجيه الإلهي فيسخرُوا كل ذلك بالعلم والمعرفة، ويمتلكوا الكون مستعملين الملاحظة والتجربة في نفع الإنسانية، ولكن العلم والمعرفة في الإسلام لا يقتصران على الجانب المادى، إن العلم المادى، علم تسخير الكون، يحدث عليه الإسلام ولكنه لا يقف عنده، فغاية المسلم تتمثل في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ۖ ﴾ (النجم) وقوله سبحانه مؤكداً إسلامية المعرفة والعلم بقوله سبحانه:

﴿ أَقْرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ أَقْرَأُ ۝٣ وَرَبُّكَ

الْأَكْرَمُ ۝٤ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٥ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٦ كَلَّا

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْرُجْعَىٰ ۝٨ ﴾

(العلق)

وإن ﴿ أَقْرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ ﴾ يوجهنا مباشرة نحو هذا المنتهى، العلم عبادة، وإذا كنا- كمسلمين - مدعويين إلى تسخير الكون مأمورين بتسخيره في سبيل الله وتذليله رجاء الله فنحن بهذا متجهون إلى الله غير ناظرين إلى هذا التسخير وإنما إلى الكون، وبذلك يكون التسخير نفسه عبادة.

فالسيطرة على الطبيعة في الوضع الصحيح هجرة إلى الله، إنها قراءة باسمه، فهي داخلية في نطاق ﴿ أَقْرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ ﴾ وإذا قرأت باسم ربك فأنت عابده في أعمالك وفي أقوالك، والعلوم في الإسلام على الوضع الصحيح إذن عبادة حتى في الجانب المادى منه، ولا يتأتى أن يقف الإسلام عقبة في سبيل العلم أو أن يتعارض الإسلام مع العلم الحديث.

إن مشكلة التعارض بين الدين والعلم إنما نشأت في أوروبا بعيدة كل البعد عن الروح الإسلامية التي حدثت الإنسانية على التعلم، والتي ولد المنهج العلمى الذى يسمونه المنهج الحديث بين ربوعها، والتي أنشأت على أساس هذا المنهج حضارة لا تزال تكشف كل يوم عن الكثير من أبحاثها العميقة<sup>(١)</sup>.

(١) الدكتور عبد الحليم محمود، تفسير سورة آل عمران، طبعة ١٩٧٨ ص ٩ وما بعدها.

## آراء المجيزين للتفسير العلمى للقرآن الكريم:

وهذا الفريق من علماء المسلمين ومنهم مؤلف هذا الكتاب يجيز التفسير العلمى للقرآن، ويدعو إليه، ويرى فيه فتحة جديدة وتجديدا فى طريق الدعوة إلى الله وهداية الناس إلى دين الله. وقد انتشر هذا النوع من التفسير واتسع القول فى احتواء القرآن كل العلوم ما كان منها وما هو كائن وما سيكون، فالقرآن فى نظر أصحاب هذه الطريقة يشمل إلى جانب العلوم الدينية والاعتقادية والعلمية أساسيات علوم الدنيا على اختلاف أنواعها وتعدد ألوانها.

وكان الإمام الغزالي رحمه الله، أكثر من استوفى بيان هذا اللون من تفسير القرآن الكريم، وأهم من أيداه وعمل على ترويجه فى الأوساط العلمية الإسلامية، وقد أوضح أفكاره وآراءه فى هذا الموضوع فى الجزء الأول من كتابه الشهير «إحياء علوم الدين».

كذلك نجد العلامة جلال الدين السيوطى ينحو منحى الإمام الغزالي فى القول بالتفسير العلمى، ويقرر ذلك بوضوح وتوسع فى كتابه «الإتقان» وفى كتابه «الإكليل فى استنباط التنزيل» مستندا إلى قوله تعالى: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ٣٨).

وقوله سبحانه: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (النحل: ٨٩).

فلا بد للمفسرين فى عصرنا من الاستعانة بعلماء الكونيات ليوفقوا بين الحقائق الكونية المكتشفة وبين النص القرآنى المشير إلى هذه الاكتشافات، لأن هذه الحقائق كانت موجودة فى القرآن مجملة، وليست هذه المسائل من قبيل العقائد والعبادات والأحكام، ولهذا يجوز أن تفهم وتؤمن الأجيال القديمة بالمعنى الإجمالى ويكتفوا به. وهذا لا يسبب أى نقیصة للقرآن ولا لقدامى المفسرين من الأمة الذين لم يكن فى استطاعتهم أن يعرفوا هذه المسائل العلمية بالتفصيل. بل يكون دليلا آخر للإعجاز القرآنى؛ لأن القرآن يعلن بصراحة أنه يحتوى على بعض الحقائق التى لم تظهر حقيقتها فى وقت النزول ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (يونس: ٣٩) والجملة الأخيرة من الآية صريحة فى أن القرآن يحتوى على بعض الحقائق التى ستنتضح بمرور الزمان<sup>(١)</sup>.

والواقع أن الامتناع عن الأخذ من باب العلوم الكونية ومكتشفاتها الحديثة بما يدعم تفسير آيات القرآن هو منع لخير فتح بابا لخدمة القرآن والإسلام، مع التأكيد على أن الإفراط

(١) الدكتور سعاد بلورم - أبحاث مؤتمر الإعجاز العلمى للقرآن باكستان ١٩٨٧.

والتفريط والإسراف في اللجوء إلى العلوم الكونية وفروضها ونظرياتها حتى ولو كانت لا تدخل في نطاق الإشارات العلمية القرآنية - هو تشويه للقرآن وإظهاره بمظهر الضعيف.

فخير الآراء الذى يجيز اللجوء إلى الراسخين فى العلوم الكونية من المسلمين لبيان الحقائق والمكتشفات العلمية التى تخدم فى فهم الإشارات العلمية فى القرآن الكريم فهما عصريا دقيقا دون شطط أو مغالاة.

والمفسرون فى كل عصر هم حملة الدعوة إلى الإسلام. وفى بدء الدعوة إلى الإسلام كان رسول الله ﷺ هو داعى الله.. وبعد أن انتقل إلى رحاب بارئه أصبحت الدعوة مهمة علماء الدين، وعلى رأسهم المفسرون. ذلك أن ختم رسالات السماء إلى الأرض برسالة محمد قد أنهى طور النبوات والرسالات المتجددة، فأصبحت الدعوة إلى دين الله الواحد، دين الإسلام، هى دعوة علماء الدين الإسلامى وعلى رأسهم المفسرون.

وفى العصر الحديث لا يمكن أن يتجاهل أى مفسر معاصر البحوث والدراسات والكتب التى كتبت فى الإشارات العلمية فى القرآن الكريم. والأسئلة التى يثيرها المسلمون وغير المسلمين بخصوص هذه الإشارات، فهو لابد أن يلم بهذه الموضوعات المتعددة ويدل بدلوه. ويحاول الإجابة عليها. حتى يأتى تفسيره حيويًا يواجه التطورات المستمرة فى العلوم الدنيوية والمجتمعات الإنسانية.

يقول المستشرقون.. إن قوانين الكون تتصادم مع القرآن الكريم..! ونحن نؤكد لهم أن العلم الحديث قد أثبت أنه لا توجد حقيقة كونية واحدة تتصادم مع ما جاء فى القرآن. ويقول المستشار مدحت حافظ إبراهيم:

إن القرآن الكريم لا يتصادم مع قوانين الكون.. أو مع خلق الكون، ولكن هذا التصادم المزعوم يأتى عن حقيقة قرآنية أسىء تفسيرها.. لتبدو فى غير معناها الحقيقى.. وكما قلت أعود فأكرر.. إننا لا نريد أن نثبت القرآن بالعلم.. بل إن العلم هو الذى يجب أن يُثبت.. ويلتمس الدليل من آيات القرآن الكريم.. ذلك أن القرآن أصدق من أى علم من علوم الدنيا، ومن أى علم فى هذا العالم.. لأن مكتشف هذا العلم أو مخرجه بشر، وقائل القرآن هو الله سبحانه وتعالى.. ومن هنا كما قلت - فإننى لا أحاول أن أثبت القرآن بالعلم الأرضى ولكننى أرد على الذين يقولون إن هناك تناقضا بين حقائق الكون الأساسية.. وكلام الله سبحانه وتعالى:

ويرى بعض العلماء المسلمين بحق أنه يجب على المفسرين فى المستقبل الاستعانة بأحدث المعلومات ليقدّموا الترجمة الصحيحة للآيات العلمية.

«فآيات الكريمة التى وردت بها الإشارات العلمية إذا كان يمكن لنا أن نفهم بعضها بسهولة فإن البعض الآخر لا يمكن إدراكه بعمق إلا إذا كان المرء محيطا بمعارف علمية لازمة

للفهم الحقيقي. وذلك يعنى أن إنسان القرون السالفة لم يكن باستطاعته إلا أن يتبين فى هذه الآيات المعنى الظاهرى الذى قاده أحيانا إلى استنتاج تفسيرات غير دقيقة بسبب عدم كفاية معرفته العلمية فى الماضى. وبهذا فإن عدم الدقة فى الترجمة والتعليقات الخاطئة يجب أن تؤخذ فى الاعتبار حتى يتم تصحيحها فى المستقبل بالنسبة لترجمات الآيات العلمية فى القرآن، وخاصة أن كل المترجمين المحدثين يستعملون - فى أحيان كثيرة ودون روح نقدية- كافة تفسيرات المعلقين القدماء. وهناك الآن من يحتاطون لتفسيراتهم الجديدة برأى العلماء المتخصصين فى الآيات العلمية كما هو الحال فى تفسير «المنتخب فى تفسير القرآن الكريم». والتفسير العلمى للآيات الكونية. اتجاه جديد محمود تزعمه علماء أجلاء متخصصون فى العلوم الكونية مثل المرحوم الدكتور محمد الغمراوى والأستاذ حنفى أحمد والمؤلف<sup>(٥٥)</sup> وغيرهم بعد أن وصل العلم حديثا إلى كشف الكثير من الأسرار والسنن الكونية مما لم يكن معروفا فى العصور الماضية، وتشجع العلماء المتخصصون المؤمنون من منطلق الحماسة الدينية والغيرة الإسلامية لإبراز الإعجاز العلمى للقرآن والتحقيق والتفسير العلمى للآيات الكونية بلغة العصر الحديث الذى لا يؤمن بغير لغة العلم وسيلة للتخاطب، فضلا عن الاقتناع. وتم عقد المؤتمرات لهذا الغرض وإنشاء هيئة للإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسنة النبوية فى كل من السعودية ومصر لوضع المنهج والضوابط لهذا التفسير وتوظيف هذه الظاهرة فى مجال نشر الدعوة الإسلامية، وأصبح من الضرورى وقد قويت الصلة بين العلم والدين أن يتعاون فى تفسير الآيات الكونية العلماء الكونيين والشرعيين، ولهذا أنادى دائما بإنشاء مركز لبحوث الإعجاز العلمى للقرآن بمجمع البحوث الإسلامية وكذلك إنشاء قسم لهذا التخصص فى كليات جامعة الأزهر بعد أن استجاب لدائى مشكورا الإمام الأكبر سيد طنطاوى ومعالى أ.د. حمدى زقزوق فى الموافقة على تشكيل لجنة للإعجاز العلمى للقرآن بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية والتي أتشرف بعضويتها وبمهمتى مقررا لها.

ونحن هنا لا ننكر مجهود المفسرين القدماء الذين فسروا الآيات الكونية على مقتضى أصول اللغة وغريبتها، وعلى قدر ما توافر لديهم من طرق العلم وأساليب البحث فى الكائنات، ونظرا لعدم تقدم العلم فى عصورهم فقد استخدموا التأويل المجازى فى تفسير الآيات الكونية وأخذوا بوجه دون آخر من وجوه المعنى اللغوى للألفاظ، واستعانوا للأسف بالشائعات الخرافية الظنية عن الكون المادى مما لم يثبت بالدليل القاطع ورواه بعض العلماء المتأثرين

(٥٥) راجع كتب المؤلف فى هذا المجال بدار الفكر العربى وهيئة الكتاب ودار المعارف.

بالإسرائيليات مثل كعب الأخبار. ولقد كان لهذه السموم أثر سييء لم يتنبه إليه علماءنا وانزلقوا فيها بحسن النية. وعلى كل حال فالفسرون بشر يؤخذ من كلامهم ويرد ولا يصح أبدا التمسك بكلمة التراث بل يجب تنقيته مما علق به من خرافات.

والآيات الكونية في القرآن الكريم تتحدث عن مظاهر قدرة الله، أى فى السماء والأرض وفى الإنسان والنبات والحيوان لتلفت النظر إلى التدبر فى هذه الآيات حتى يصل العقل البشرى من خلالها إلى الإيمان بوجود الله وقدرته ووحدانيته، هذه الآيات تتحدث عن سنن الله الكونية التى يراها الإنسان العادى فىأخذ منها عبرة عامة، ولكنها أيضا تحتوى على إشارات علمية تظهر كلما تقدم العلم وكشف شيئا من أسرار هذا الكون فتحتاج إلى الراسخين فى العلم لتفسيرها لأنها رموز الكون.

لقد كانت دعوة القرآن قانعة على تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلى، وسيطرة التبعية العمياء، وتربيته تربية إسلامية تقوم على حرية الفكر واستقلال الإرادة وتحرير الإنسان من ظلام الجهل وطاعة الأهواء والانقياد الأعمى، وتحرير العقل البشرى من الأوهام والخرافات، وإطلاقه للنظر فى الكون نظرة عامة والتدبر فى آيات القرآن الكريم.

ولقد جاء الحديث فى القرآن الكريم عن الكون كما جاء عن الشرائع والقصص مناسبة لجميع الناس على اختلاف درجات عقولهم وأفهامهم وزمانهم فكان ولا يزال وسيظل للناس جميعا من ظاهر الآيات القرآنية معان واضحة سهلة تصور لهم صنعة الخالق كما يشاهدونها، وتبين لهم ما فيها من آيات القدرة العظيمة ودلائل العلم الواسع مع التوجيه الحكيم إلى غايات محدودة ورحمة مقصودة لكى يتعرف الجميع دون عناء على خالق الكون سبحانه وتعالى وعلى كمال صفاته وأفعاله.

وبالإضافة إلى المعانى الظاهرة فى آيات القرآن الكريم، فإن المتأملين من أهل العلم فى هذه الآيات يرون معانى أخرى دقيقة تنطوى على أصول وجوامع مع العلم الواسع الدقيق ورموز الكون بأسلوب عميق، لذلك نرى الكثير من آيات القرآن تنتهى بمثل قوله تعالى:

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٧) (الأنعام)..

أو ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (١٨) (الأنعام)..

﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢٤) (يونس).

والقرآن الكريم وصفه الله بالعلم بمفهومه الشامل كما في قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْصَلَ ﴾

إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ (طه)

فالعلم هنا هو علوم القرآن كما هي معروفة الآن في الكليات الشرعية وأيضاً العلوم الكونية كما هي معروفة في الكليات الأخرى العملية والتكنولوجية، وليس هذا فحسب ولكن علينا أن نأخذ شعار الاستزادة من العلم دائماً ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ وهذه دعوة قرآنية للعلوم كلها دون ذكر التفاصيل والجزئيات وتركها لاجتهاد الإنسان.

فالقرآن الكريم أجل وأعظم من أن يكون كتاباً في العلوم وكما يقول المستشار مدحت حافظ إبراهيم<sup>(١)</sup>: «إعجاب المسلمين الصادق بالقرآن الكريم إعجاب لا يفوقه إعجاب وهم في ذلك محقون الحق كله بيد أن إعجابهم هذا قد جعل بعضهم يتصور أن علوم الدنيا كلها ينبغي أن تكون متضمنة فيه، ولذلك فهم ينادون بضرورة استخراج العلوم من القرآن».

ولكن القرآن يتعرض لقضايا كونية أساسية بإيجاز بليغ يوقد جذوة الفكر وطلب العلم عند الإنسان، ويزيل الغشاوة عن الأبصار والبصائر ويحطم الأقفال عن الأفئدة والقلوب وهذا في حد ذاته هبة إلهية لا تخبو ولا حدود لها لإخراج الناس من الظلمات إلى النور كما في قوله تعالى :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ

سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿المائدة: ١٥ - ١٦﴾

وتعلم العلوم الكونية ليس من مهام الرسالة السماوية ولكن الهدف من الإشارة إليها هو توجيه الإنسان بوجود خالق مبدع لكل الكائنات ليصل الإنسان بالكون، ويصل الوحي بالوجود في إطار منهج التوجيه الإسلامي للعلم والمعرفة كما سنوضح في هذا الكتاب لنقرأ باسم الله القراءتين الدينية والكونية معاً كما في قوله تعالى :

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ ③ وَرَبُّكَ

الْأَكْرَمُ ④ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ⑤ ﴾ (العلق)

(١) الإشارات العلمية في القرآن الكريم، مكتبة غريب: ١٩٩٣

وقوله تعالى لتأكيد الناحيتين:

﴿ وَلَقَدْ جِئْتَنَّهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ٥٢)

ولقد قال الإمام الغزالي رحمه الله: إن لألفاظ القرآن الكريم معانى ظاهرة يفهمها عامة الناس وخواصهم وأخرى باطنة (دقيقة) لا يفهمها إلا أهل البحث والعلم كما فى قول الرسول الكريم.

«إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا».

ويشير القرآن الكريم إلى أن أولى العلم المتخصصين هم الذين يدركون عمق الآيات الكونية كما فى قوله تعالى:

﴿ وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ۖ

فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(الحج : ٥٤)

وقوله تعالى:

﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا

إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (العنكبوت)

وقوله سبحانه:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ (آل عمران: ٧)

ولقد أوصى القرآن الكريم غير المتخصصين بعدم الدخول فى التفاصيل العلمية، ويعطى الله الجواب القرآنى بما يحتمله عقل السائل، فمثلا حينما سأل معاذ بن جبل رسول الله ﷺ عن الأهله وتغير شكلها ولم يكن لدى الرسول علم بأسباب هذه التغير لأن علم الفلك ليس من مهمته ﷺ نزل الرد فى قوله تعالى:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّجِ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ

تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾ (البقرة: ١٨٩)

فالرد هنا مبسط دون الدخول فى التفاصيل، وكما يقول الدكتور عبد المنعم النمر رحمه الله: إن سؤال الفرد عن الدوائر الإلكترونية الموجودة فى التليفزيون مضيعة للوقت لأن عقله لا يستوعبها. ويرى أن تفسير الآيات الكونية من اختصاص أهل العلم.

ومما لا شك فيه أن العرب لم تكن عندهم قدرة لتفسير هذه الآيات العلمية الكونية وقت نزول القرآن، ولقد فهموها إجمالاً واكتفى علماء التفسير منهم بالنواحي البلاغية والنحوية، وربما أضافوا بعض الخرافات والإسرائيليات في تفسيرها.

ولكننا الآن نعيش عصر العلم ولا بد من الاجتهاد في تفسير الآيات الكونية من جديد بتعاون علماء الشريعة والكونيات، ولقد تم الاتفاق بينهما في ندوة أقيمت في الجمعية المصرية للإعجاز العلمى للقرآن الكريم (التي تشرفت والحمد لله بالاشتراك في تأسيسها ورئاستها) على وضع المنهج التالى لتفسير الآيات الكونية سوف نستعرضه فى الفصل الخامس.